لهم عين ، وهم ينظرون الى رسول الحكمة ونجى الآله ينفذ رغبة ( رع ) فى العدل والرحمة ، وتريث الكاهن قليلاً ، وهو يحرك شفتيه خاشعاً بشىء يشبه الصلاة ، فلما أتمها دفع العامل الشقى فأة فقذف به على المنحدر الذى هوى عليه من قبل الرقيب القاسى ، وتحطم كما تحطم ذلك الرقيب من قبل

ونظر الكاهن الى الجمع المحدق به وقال لهم كلمات خروا بعدها للأذقان سجداً ؛ ثم قاموا فأشار إليهم إشارة أخرى فانصرفوا وتبددوا كما يتبدد السحاب فى الريح ، فما هى إلا لحظة حتى عادت السموط تنتظم ، وتجر الأحجار نحو أعلى المنحدر ساعدة الى قمة البناء الهائل ليبنوا لفرعون قبراً جديراً بمجده

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، وكنت قد امتلأ قلبى بما رأيت ، فقمت عن الصخرة التى كنت جالساً عليها ووضعت المرآة فى جيبى ، وجعلت أعزى نفسى عن وقع ما رأيت بأن أقول لها : « روبدك يا نفس ! فما زال الانسان هو الانسان »

محمد فريد أبو حديد

# الدرر الكامنة

للأستاذ محمد كرد على

عضو مجمع اللغة العربية الملكى

طبعت عدة كتب فى الطبقات والتراجم لأهل القرون الماضية فى الأسلام ، والى الآن لم تطبع تراجم أهل القرن الثامن والتاسع والعاشر ، مع أن تراجمهم عُنِىَ بها فى القرن الثامن ابن حجر العسقلانى المصرى المتوفى سنة ٨٥٢ ، ووضع تراجم أهل القرن التاسع السخاوى المصرى المتوفى سنة ٩٠٢ ، وتراجم أهل القرن العاشر قام بتدوينها الغزّى الدمشقى المتوفى سنة ١٠٦١ وسمى الأول كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ، والثانى « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والثالث « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة »

ومن لطف المولى أن هذه الكتب الثلاثة بقيت فى الأرض وظفر بعدة نسخ منها فى خزائن الشرق والغرب ، لا كأكثر تركة أسلافنا بُعثرت وأحرقت وأُغرقت وأصابها كل خطب عظيم

ترجم صاحب الدرر الكامنة لألف وثلثمائة وثلاثة وأربعين رجلاً وامرأة ، تراجم اعتمد فى وضعها على من سبقوه فى هذا الشأن من رجال التاريخ ، أو كانوا ممن عاصرهم وسمع عنهم وأخذ منهم الحديث ، أو أخذ مشايخه عنهم . ويغلب على ابن حجر الحديث والعناية برجاله ونسائه ، ولذلك ذكر عشرات من المحدثات ممن كن يروين الأحاديث النبوية ويروّينها . وترجم لبعض المشهورين تراجم لابأس بها . ترجم لابن تيمية ، ولسان الدين بن الخطيب ، والصلاح الصفدى ، وابن فضل الله العمرى ، وابن كثير ، والبرزالى ، والذهبى ، وشيخ الربوة ، وأبى الفداء ، وابن المطهر الشيعى ، وغازان ، وابن دقيق العيد ، والبدر البلقينى ، وابن الوكيل ، وابن سيد الناس ، وابن نباتة ، وابن الحاج ، وابن المكرم ، والشمس القونوى ، وابن الوردى ، وابن جماعة ، والتاج السبكى ، والتقى السبكى ، والأردبيلى ، وابن الأكفانى ، والخطيب القزوينى ، وابن الزملكانى ، وأبى حيان الأندلسى ، والقطب الشيرازى ، والبازرى ، والمزّى ، وغيرهم

والى جانب هؤلاء تجد تراجم أناس من الخاملين كبعض المجاذيب والموظفين والطلبة ، كأن لسان حال ابن حجر يقول : يجب ألا يحتقر أحد ، وأن يدون كل شىء . ولكن هذه الطبقة شغلت فراغاً من الكتاب على غير جدوى ومثلهم كثير فى كل عصر ومصر ، لو تطلعت نفوسنا الى التعرض لذكرهم لملأنا منها قماطر ودفاتر ، والمقصود تدوين سير العظماء ممن كان لهم أثر محمود فى علم وعمل . وفى نظرنا أن من أهم من دون المؤلف حياتهم بعد علماء الدين ورجال الأدب أناساً من أرباب الغناء والموسيقى والهندسة والطب ، وبهم فى الجملة عرفنا روح ذاك القرن ، قرن المماليك فى مصر والشام ، بل مبدأ قرون الانحطاط ومنتهى قرون الارتقاء فى الاسلام

يقع القارئ فى هذا السفر على الروح الذى سرى فى ذاك العصر إلى النفوس فلونها بلونات التعصب الذميم . وقد ذكرها المؤلف على الأكثر غير متعرض لجرح أو تعديل فيها . بيد أن القارئ امهدنا ، وقد وضع المؤلف أمامه هذه الوثيقة أو الوثائق التاريخية الكافية ، تهيأ له أسباب الحكم على ذاك المجتمع الذى فاض بالجور السياسى والجور الفكرى . فالجور السياسى غزوات

الطط ( التتر ) من الشرق على الديار الشامية ، أي الجزء المتمم للمملكة المصرية إذ ذاك ، وغزوة بعض شعوب الأفرنج بعض السواحل المصرية حتى افترصها أحد الجورة من المماليك فرصة ليصادر النصارى في مصر ويستصفي ما في بعض كنائسهم من الجواهر والمعادن الكريمة أو يخربها حباً في التخريب وإبلاغاً في النكاية على زعمه. هذا هو الجور السياسي . أما الجور الفكري فتحامل الموسومين بالدين على من بيّنت منهم بعض نزعات قيل إنها مخالفة للشريعة فكان جزاؤهم القتل . وما نظن أكثر تلك التهم مما يصح أن يتهم به صاحبه من أنه جنى بما قال على الدين إذا تدبرنا ما لاقاه شيخ الاسلام ابن تيمية من متعصبة العلماء في عصره في مصر والشام ، وهو النابغة الذي عقمت القرون عن أن تلد أمثاله بعلمه وعقله وإخلاصه على ما دوّن ذلك ابن حجر في هذا الكتاب . فكانت ترجمته له أحسن ترجمة فيه لأول عالم نبغ في أول القرن

ثم إن من نظر في كتب المتأخرين وكتب المتقدمين يجد فروقاً كثيرة بين الأولى والثانية : فروقاً في الأسلوب وفي المكتوب ؛ وهل التاريخ إلا مرآة العصر الذي يكتب فيه ، وروح صاحبه الذي يمليه ؟ وما كان لابن حجر أن يكتب في التراجم ويجوّد إجادة ابن خلكان في وفيات الأعيان مثلاً ، ولا للسيوطي في مؤلفاته التاريخية أن يجود تجويد الكندي صاحب كتاب ولاة مصر وقضاتها ؛ وهكذا قل في الزمن الذي بدأت فيه الشروح والحواشي في الكتب الدينية ، وصار من يسلخ من كلام غيره أو يمسخه وينسخه يعد مؤلفاً فيزيد عدد الأسفار المحفوظة في الخزائن على غير فائدة جليلة

* * *

تمنيت في سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) في مجلة المقتبس ، وقد درست هذا الكتاب في نسخة خطها أنامل ابراهيم البقاعي أحد أعلام عصره — الذي قال في نسخته : وكان فراغي من هذه في ١٧ شوال سنة ٨٥٩ بمنزلي بحارة بهاء الدين في القاهرة — تمنيت لو يقوم رجل منا فيطبع هذا الكتاب ، وقلت يومئذ لو لم يكن في هذا الكتاب سوى ترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية ، لكان كافياً في طبعه ؛ ولكن قوى شغلتهم الشواغل ، وأصيبوا بالاهمال ، فتهيأ لطبعه صديق العلامة كرينكو أحد علماء المشرقيات من الألمان ، فطبعه في أربعة مجلدات في أكثر من ألفي صفحة معارضاً له على نسخ مهمة ، وذلك على يد مجلس دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد الدكن من ممالك الهند . وقد اعتادت هذه الدار أن تطبع من كتب العرب كل مفيد ، فأحيت كتباً في الحديث والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ والفنون ، ونشرت حتى الآن نحو ثمانين كتاباً منها ما دخل في بضعة مجلدات ضخمة ، ومما طبعت لابن حجر مؤلفنا الذي نحن بصدد الكلام على كتابه « لسان الميزان » و « تهذيب التهذيب » و « تعجيل المنفعة في رجال الأئمة الأربعة » الخ

هذا ولا يسعنا إلا أن ننوه بالناشر الغيور على العلم ، وقد رأيناه جود معارضة النسخ وإثبات الصحيح من النصوص على عادة علماء المشرقيات في تدقيقهم إذا أرادوا طبع كتب العرب ؛ وكم لهم من أياد بيضاء علينا لا ينكرها الا منكر الجميل وغامط العارفة . وحبذا لو شفع الناشر هذا الكتاب الجليل بالفهارس المنوعة التي تسهل على العلماء الأخذ منه ، فان كتاباً بلا فهرس تقل فائدته إذا كان من كتب المراجع ؛ وعلمت أن الناشر وضع الفهارس والطابع تأخر في طبعها ، وما أدري ما اعتذاره

وقد نشر السيد سالم الكرينكوي — كما دعا نفسه — كتاب التيجان لوهب بن منبه ، وأخبار اليمن لعبيد بن شرية ، وحماسة ابن الشجري ، أتكلم عليهما في فرصة أخرى وأكتفي هنا بشكره ، وأن أوجه نظره إلى كتاب آخر لابن حجر لا يقل عن الدرر الكامنة في الفائدة ، وهو « إنباء الغمر في أبناء العمر » وفي الخزانة الظاهرية بدمشق مسودة هذا المخطوط بخط مؤلفه ، وهو تعليق كما قال فيه جمع فيه حوادث الزمان منذ مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وهلم جراً مفصلاً في كل سنة أحوال الدول ووفيات الأعيان ، مستوعباً لرواة الحديث خصوصاً من لقيه أو أجاز له . وقد امتد هذا الكتاب إلى سنة خمسين وثمانمائة ، وجاء من ذيل عليه ، كما جاء من اختصر له الدرر مثل ابن المبرد وجلال الدين السيوطي الذي عرف بالولوع باختصار الكتب

القاهرة — محمد كرد علي